# ثورة المقراني في منطقة

# باليسترو " الأخضرية " سنة 1871

أ. محمد بجاوي

جامعة التكوين المتواصل . مركز البويرة

ملخص :

لقد كان تجاوب سكان منطقة باليسترو مع ثورة المقراني دليلا على أن الجزائريين في مختلف الجهات كانوا يئنون تحت سياط الظلم والقهر المسلط عليهم من قبل الاستدمار الفرنسي الذي غرس جسما غريبا عن أبناء شعبنا في هذا الوطن ؛ ثم راح يتعهده بالرعاية والعناية حتى يتمكن من بسط هيمنته على ربوع بلادنا.

وما الأحداث المترتبة عن الصراع المرير بين الاستدمار الفرنسي وأبناء وطننا إلا دليل على أن الجزائريين لا تنقصهم الشجاعة للوقوف في وجه الغزاة بقدر ما كانوا يفتقرون إلى قيادة حكيمة تمكنهم من طرد كل ظالم غاشم يسعى لسلب حرية الجزائريين .

ومن جانب آخر فقد كانت ثورة 1871 مناسبة للمستعمرين الفرنسيين كي يواصلوا بتحريض من المعمرين الحاقدين سياسة سلفهم الماريشال بيجو المتعطش لدماء الأحرار؛ فقد أعدموا ونفوا وسجنوا الرجال كما أحرقوا وخربوا المنشآت القاعدية للسكان (منازل، قرى، محاصيل زراعية وأشجار مثمرة) وختموها في نهاية المطاف بمصادرة أراضي الأهالي بمختلف الدواوير المشاركة من بعيد أو قريب في الثورة بمنطقة باليسترو.

وثورة 1871 كانت حجة للمستوطنين أيضا كي يتخلصوا من كل التحرشات والانتفاضات التي كانت تهدد أهدافهم الاستيطانية في الجزائر، ولسان حالهم يقول: لقد جنيتم على أنفسكم، فلا تلوموا أحدا ... حقا إنها كلمات صاحب سياسة الأرض المحروقة مختزلة في الجمل التالية: سأحتل جبالكم، وأحرق قراكم، وأقطع أشجاركم المثمرة، فلا تلوموا إلا أنفسكم.

**أوضاع الأهالي الجزائريين قبيل سنة 1871**

بعد أفول مقاومتي الأمير عبد القادر وأحمد باي بالقطاع القسنطيني، عمدت الإمبراطورية الفرنسية الثانية إلى عملية تهجير واسعة النطاق للأوروبيين من فرنسا وأوروبا إلى الجزائر بغرض توطينهم في هذه البلاد التي وقف أحرارها ضد التوسع الاستعماري.

ولكي تضمن السلطات الفرنسية النجاح لمشروعها الاستدماري ذاك عمدت إلى مصادرة أملاك الجزائريين من أراضي وقطعان المواشي وتمليكها للمهاجرين الأوروبيين الذين جيء بهم إلى الجزائر من فرنسا وأوروبا لاستغلالهم في حركة التوسع الاستعمارية .

وكان من نتائج هذه السياسة الظالمة في حق الجزائريين تضاعف البؤس والحرمان في صفوف أصحاب البلاد . والعجيب في الأمر هو أن حكومة نابليون الثالث كانت تتظاهر باتباع سياسة ( الملكية العربية ) التي تهدف إلى حماية الجزائريين وأملاكهم، ومقاومة تسلط المعمرين وجشعهم؛ غير أن الواقع كان يبيّن

عكس هذا تماما وذلك ما كان واضحا من خلال جريدتي المبشر والأخبار الصادرتين في الجزائر واللتين كانتا تنشران القوائم الطويلة للأراضي المصادرة من أبناء البلاد وتوزيعها على الغرباء من الهاجرين الأوروبيين الذين جيء بهم للاستيطان في الأراضي الجزائرية العامرة بأهلها الذين لم ولن يصبروا على هذا التعسف البغيض.

وكان النظام المدني في نهاية السنوات الثلاث1867 -1869 قد توج الحصيلة السيئة لنهم المستوطنين المتعطشين لترسانة من القوانين القمعية التي كثيرا ما أخافت الأهالي الجزائريين بعد نفشي البؤس والحرمان بين الجزائريين أصحاب الأرض الشرعيين الذين تعرضوا في عام 1869 إلى مجاعة حادة لم يعرف الجزائريون مثلها من قبل إذ مات عشرات الآلاف من الآباء والأبناء، وعشرات الآلاف من قطعان الحيوانات والمواشي نتيجة لقلة الحبوب والعلف مما اضطر سكان الأرياف إلى الزحف على مدن الشمال بحثا عن مورد للرزق ومصدر للعيش والكسب [1]. وبذلك أصبحت الثورة واقعا حتميا لا مفر منه .

وكان المقراني والشيخ الحداد ورفاقهم الوطنيون ينتظرون الفرصة المواتية داخليا وخارجيا للانقضاض على جيوش الغزاة لتخليص الوطن من هذا الكابوس الذي ظل مهيمنا على البلاد منذ 40 سنة. وإذا بالأخبار تأتيهم من فرنسا معلنة عن سقوط

الإمبراطورية الثانية وإعلان الجمهورية الثانية وانتفاضة كومون باريس ثم اضطرار حكومة تيار(thiers) إلى توزيع قواتها على جبهات القتال استعدادا للحرب المفروضة عليها من طرف الألمان بقيادة بيسمارك الرجل القوي في ألمانيا حيث بدأت قواته تتعاظم في أوروبا .

وصلت الأخبار بعد ذلك معلنة عن انهزام القوات الفرنسية في معركة فيردان يوم 1870/09/02 وبعدها مباشرة في معركة ماتس يوم 27 أكتوبر. وبالرغم من أن الأخبار كانت تصل إلى الجزائريين مضطربة متناقضة وغير واضحة إلا أنها كانت تدل على مدى التعفن السياسي الذي آلت إليه فرنسا بعد انهزامها وانكسار قواتها

وعند ذاك أحس الجزائريون بأن الوقت قد حان للقيام بثورة كبيرة تقضي على بقايا الإمبراطورية الفرنسية في ربوع الجزائر الجريحة. هذه الثورة التي لم تكن الأحداث الخارجية والداخلية لتلهي أبطالها عن الإعداد لها ماديا ومعنويا؛ من ذلك أن حركة المقراني في منطقة البويرة المتاخمة لمنطقة باليسترو كانت قد انطلقت في سنة 1868 ، بعد أن قامت قبيلة مشدالة بحرق أكواخ الفرنسيين بتالة رانة في 19 مارس من نفس السنة [2]

وبمنطقة ذراع الميزان المتاخمة لمنطقة باليسترو من الناحية الشمالية الشرقية كانت هناك زاوية سيدي امحمد بن عبد الرحمن بوقبرين في قرية آيت اسماعيل مركزا لنشاط الإخوان الرحمانيين ،

وكان مقدموها يجمعون بمنطقة باليسترو رؤساء الدواوير والقبائل ويحثونهم على التصالح فيما بينهم للانضمام إلى الثورة ومحاربة العدو المشترك .

ويقول سكان قرية آيت اسماعيل مقرّ ضريح الولي الصالح سيدي امحمد بن عبد الرحمن: إن المقدم سي محمد الصالح بعث رسالة التأييد للشيخ الحداد مشفوعة بختم الولي الصالح يعلن فيها عن اتفاق الجميع بالمنطقة على مؤازة وتأييد الثورة، في الوقت الذي كان فيه الشيخ محمد الجعدي من المنظمين لصفوف المجاهدين استعدادا للمعركة الحاسمة [3] .

**استياء الأهالي من المستوطنين بمنطقة باليسترو**

لا شك أن المتتبع لتاريخ منطقة باليسترو يلاحظ أنه منذ وصول أشغال بناء الطريق الإمبراطوري الرابط بين الجزائر العاصمة وقسنطينة إلى مشارف عمّال؛ يلاحظ استنكار السكان واستياءهم من إقدام السلطات الاستعمارية على بناء سكنات للعمال على أراضي قبيلة بني هيني المتاخمة لأراضي دوار بني خلفون من الناحية الشرقية وأراضي دوار بني معاند من الناحية الشرقية الجنوبية، في مكان لا زال الناس إلى اليوم يسمونه حي ززي بمدينة الأخضرية .

ومن ثمة فإن العمال الأوروبيين المقيمين في زززي بمجرد حصولهم على قرار تسمية باليسترو سنة 1869 انطلقوا في سعيهم لإعطاء مستوطنتهم المكانة التي تجعلها قطبا يؤمّه الناس من مختلف قرى ومداشر الدواوير القريبة منها، وذلك من خلال عزمهم على إنشاء سوق أسبوعي بهذه المستوطنة بدلا عن السوق الأسبوعي الذي كان أهل عمّال يعقدونه كلّ جمعة غرب قرية قرقور [4] . وكذا السوق الأسبوعي الذي كان سكّان دوّار بني خلفون يعقدونه كلّ يوم أربعاء بالبطحاء المسمّاة وادي الأربعاء التي تقع بالجنوب الشرقي لقرية تاليوين الحالية . وهو ما جعل سكّان وأعيان الدوّارين يرفضونه ويحتجّون على إنشائه بكلّ قوّة . لأنّ القبايل كانوا يعطون للسوق أهمّية كبرى لأنّه يمثل في نظرهم سمعة وشرف الدوار؛ إضافة إلى الجانب الاقتصادي [5] .

إن المستوطنين في باليسترو واصلوا تنفيذ مخططهم القاضي بإنشاء السوق الأسبوعي غير آبهين باحتجاجات الأهالي القاطنين بالدوارين المذكورين آنفا، وهو ما حمل قّايد دوار عمّال ،الحاج أحمد بن دحمان إلى تحذير رئيس بلدية باليسترو من عواقب الاستمرار في ذات الاتجاه بقوله : إن أعيان القوم وأشرافهم في الدوار سيستخدمون كل ما لديهم من تأثير على السكان الأهالي بغرض مقاطعة سوق باليسترو [6] .

وأنشأ المستوطنون السوق الأسبوعي بالمستوطنة منذ سنة 1870 لمنافسة سوق الأربعاء لبني خلفون وسوق الجمعة لدوار عمّال، ونتج عن ذلك تشنج في علاقات الأهالي بالمستوطنين فاستغل مقدمو الطريقة الرحمانية تذمر السكان وكثفوا من اتصالاتهم بدواري بني خلفون وعمّال من أجل إصلاح ذات البين وشحذ الهمم وحث الناس على الثورة ضد الغزاة المستوطنين[7].

ويضاف إلى ذلك؛ حقد بعض عائلات الأفراد الذين كانوا يشتغلون عند بعض المستوطنين عامة وبصورة خاصة عند رئيس البلدية مسيو باسيطي الذي كان يهضم الحقوق ولا يفي المشتغلين عنده أجورهم، وهو ما دفع الشغالين عنده إلى الاحتجاج والتذمر ممّا كان يعطيهم من أجور زهيدة[8].

وفي صباح يوم السبت 08 أفريل من عام 1871 أعلن الشيخ الحداد مقدم الطريقة الرحمانية في ساحة السوق بصدوق عن انطلاق الجهاد ضد المستعمر الفرنسي ؛ عندما رمى عصاه وسط الجماهير المحتشدة. قائلا: بعون الله سيكون من السهل علينا أن نرمي بالفرنسيين في البحر الذي جاء بهم، بعد أن كان المقدم قد تلقى الدعم والمساندة من قبل المقدمين الرحمانيين بمنطقة الزواوة وعلى رأسهم الشيخ سي محمد الصالح الذي بعث إليه رسالة التأييد

والموافقة موقعة بختم الولي الصالح سيدي امحمد بن عبد الرحمن بوقبريــن [9].

ودفع المقدمون الرحمانيون بـ 250 قبيلة إلى المعركة المصيرية .وهي تمثل في مجموعها ثلث الشعب الجزائري من أغلبية سكان منطقة القبائل وقسنطينة والتابعين لهم من وسط وغرب الجزائر. ولذلك اعتبر معظم الذين كتبوا عن ثورة المقراني ومنهم لويس رين بأن ثورة 1871 هي حركة (المقاديم) المقدمين الرحمانيين وأنها حرب دينية مبنية على التعصب الديني والعرقي [10]. متناسيا أنها حركة شعبية قام بها رجال كانوا يئنون تحت سياط الظلم والتعسف والجوع .

وتوترت العلاقة بين الأهالي والمستوطنين في باليسترو، وهو ما جعل الأغراب يتوجسون خيفة مما ينتظرهم على أيدي الأهالي، خاصة بعد انتشار نبإ إعلان الشيخ الحداد عن انطلاق الثورة. وانتقل رئيس البلدية مسيو باسيطي إلى الجزائر العاصمة في الأيام الأولى من شهر أفريل سنة 1871 م لإخطار السلطات الفرنسية هناك بأن تصرفات الأهالي بالمنطقة تدعو للقلق.

وحضر الضابط العسكري لملحقة العاصمة إلى مستوطنة باليسترو للاجتماع برؤساء دواوير كل من عمّال ، بني خلفون، الزواتنة، صنهاجة وغيرهم من القبائل المجاورة بغرض طمأنة السيد

باسيطي وفي نفس الوقت حثه على ضرورة أخذ الاحتياطات اللازمة حتى لا يأخذهم الأهالي على حين غرة أوغفلة منهم [11] .

ومن جانب آخر فإن الضابط العسكري لملحقة العاصمة بعث من جهته تقريرا إلى رؤسائه بتاريخ 15 أفريل لخّص فيه الوضعية العامة للمنطقة مؤكدا على ضرورة إرسال فرقة عسكرية مكونة من 200 إلى 300 جندي لحماية المستوطنين من الأهالي الذين يتعرضون لتأثير المقدمين الرحمانيين منذ 11 أفريل، هذا التأثير الذي يمكن أن تكون له عواقب خطيرة على المستوطنين وعلى الوجود الاستعماري بالمنطقة .

ولم يكن ساعتها بإمكان السلطات أن ترسل النجدات العسكرية المطلوبة للمستوطنين في باليسترو؛ لأن الوضعية الأمنية كانت نفسها متدهورة في كل الجهات؛ وطلبات الاستغاثة التي بعث بها العسكريون والمدنيون وحتى المتعاونون مع الغزاة الفرنسيين من الأهالي كانت تصل تباعا من مختلف المناطق . وبقي المستوطنون في باليسترو قلقين على مصيرهم، وفي نفس الوقت كانوا يحضّرون أنفسهم للمعركة القادمة بالتدرب على الأسلحة التي جلبها رئيس البلدية مسيو باسيطي من الجزائر العاصمة [12].

**ثورة أهالي منطقة باليسترو**

إنّ التململ والغضب العام في أوساط الأهالي الذي تولد عن إنشاء سوق أسبوعي في المستوطنة استغله مقدّمو الطريقة الرحمانية بالمنطقة منذ الأسابيع الأولى لسنة 1871 م في إصلاح ذات البين بين دوّار عمّال ودوّار بني خلفون المتنافسين فيما بينهم منافسة شديدة قبل حلول المستوطنين بين ظهرانيهم ؛ وذلك من أجل جمع الكلمة وتوحيد صفوف الأهالي ضدّ إنشاء سوق المسيحيين الغرباء عن المنطقة . والواقع الملاحظ لبعض المواقف البارزة في علاقات الأهالي مع أولئك الغرباء على المستوى العام في المنطقة كان يدعو إلى القلق ممّا يمكن أن يحدث مستقبلا [13].

وخلال تلك الأيام، فإنّ المسمّى سعيد بن رمضان أمين قرية حزّامة المتاخمة لمستوطنة باليسترو بدوّار بني خلفون قال مرّة للسيّدة باسيطي زوجة رئيس بلدية باليسترو: بحق الله عليك ياسيّدتي أن تثقي في كلامي، فأنت طيّبة والآخرون سيّئون، وعليه أرجو أن تذهبي إلى الجزائر العاصمة ... اتركي زوجك والباقين يمارسون مهامّهم، فليس من الحكمة في شيء أن تبقي هنا بين هؤلاء [14] .

**مقتل رئيس بلدية باليسترو**

يوم الأحد 16 أفريل من عام 1971 عقد رؤساء القبائل بمنطقة باليسترو المؤيّدين لثورة محمد المقراني اجتماعا لهم في سوق صنهاجة دام 48 ساعة تقرّر خلاله الهجوم على مستوطنة باليسترو

بتاريخ 1871/04/20. في الوقت الذي كانت فيه الوضعية الأمنية العامة في المنطقة متدهورة حسب ما لخصه الحاج أحمد بن دحمان فيما كتبه بتاريخ 1871/04/17 إلى رئيس الملحقة بالعاصمة يخبره بأنّ قايد خشنة الجبل ( بني عمران ) السي سعيد أولحاج قد أحرق منازل المستوطنين التي كانت معزولة ، مضيفا أنّه وفرقة بني دحمان قاتلوا ثوّار قبائل الخشنة وحاولوا منعهم من تدمير وتخريب ديّار وأملاك المستوطنين[15] .

ويوم الأربعاء 19 أفريل يعني ثلاثة أيام بعد ذلك اكتظ سوق الأربعاء لدوّار بني خلفون بالوافدين استجابة للنداء الذي أطلقه مقدّمو الرحمانية الذين التقوا بالرؤساء المنتدبين من قبل 12 فرقة أو دوار، منها عمّال، زواتنة، صنهاجة، بني معاند، بني خلفون وغيرهم. حيث تقرّر في اجتماعهم ذاك : مهاجمة الفرنسيين وتدمير كلّ المنازل وتخريب وإحراق حاجيات المستوطنين بها في فجر اليوم الموالي .

واجتمع رجال بني خلفون ليلة يوم 20 أفريل في الوهاد والروابي القريبة من المستوطنة وكان عددهم نحو 300 رجل استعدادا لمهاجمة المستوطنين، وتمكّن أحد العمال القائمين على خدمة رئيس البلدية وهو المدعو حميدة بن سالم من بني خلفون من إخبار مسيو باسيطي بأن المستوطنة محاصرة.

ومع بزوغ فجر يوم الخميس 20 أفريل، وعلى الساعة السادسة صباحا خرج أبناء المستوطنين لإحضار حزم التبن المصففة في البيدر القريب من مستوطنتهم، وإذا بهم يعودون مسرعين ليخبروا أهاليهم أنّ التبن بالبيدر قد تمّ حرقه، وأنّهم خلال وجودهم بالمكان سمعوا صفير الطلقات النارية بتلك الجهة. وهو الامر الذي أكدته سيّدة من المستوطنين كانت متوجّهة إلى العاصمة بعربتها الخاصّة، ولكنّها عادت من حيث أتت بعد أن وجدت الطريق مقطوعا ورجالا مسلحين يجوبون المنطقة، ورغم أنّها لم تتعرّض لأيّة مضايقة أو اعتداء إلا أنّها فهمت بأنّه من الحكمة أن لا تحاول متابعة السير إلى العاصمة أو عبور هذا السد الذي يحرسه أولئك المسلحون .

ودقّ رئيس البلدية ناقوس الخطر بعد أن أدرك بأن الوضع خطير للغاية معلنا حالة الطوارئ. ولم يبق هناك واحد من المستوطنين يشكّ في أنّ الكارثة واقعة لا محالة. وطلب مسيو باسيطي من المستوطنين حضور الاجتماع العام الذي تمّ خلاله تحديد المنازل الثلاثة التي يجب أن يحتمي بها الجميع لأنّها الأكثر أمنا وهي: مقر رجال الدرك والكنيسة ومقر الجسور والطرق وهذه الأخيرة كانت مهيّئة ومدعّمة أفضل من غيرها لمقاومة المهاجمين.

وبمقر الجسور والطرق تجمع عدد من المستوطنين تحت قيادة المسيّر لتلك المصلحة ومعه حارس الفحص، وبها أيضا تمّ حفظ وتخزين المؤن الغذائية. أمّا رئيس البلدية وضابط الدرك ومن كان

معهم فقد اتخذوا من الثكنة مكانا لصدّ هجمات الثوّار، في حين أنّ الكابتن أوجي تكفّل بالتنظيم العام للمدافعين عن الكنيسة التي ضمت عددا من الأفراد [16] .

وما كاد أولئك المستوطنون ينتهون من تنظيم أنفسهم في المجموعات المشكّلة حتى شاهدوا في أعلى برج قايد دوّار عمّال راية القبّة بزاوية بابا علي خفاقة في السماء وتتحرك يمينا وشمالا وفي كلّ الاتجاهات لتدخل بعدها أفواج من الرجال المسلحين المستوطنة التي كانوا لها مطوّقين من جميع النواحي دون أن يحاولوا الاقتراب من الديّار الثلاث، بل ركّزوا على مهاجمة وتدميرالمنازل الأخرى منها مزرعة وفرن صناعة الآجر والقرميد التابعة لرئيس البلدية مسيو باسيطي، حيث كان أحد الأوروبيين بالمصنع حارسا وقد حاول صدّ المهاجمين فقتل في الحين . وفي نفس الوقت كانت مجموعة أخرى بقيادة محمد بورحلة أمين فرقة آيت نزّار بدوّار بني خلفون تدمّر منزل مسيو بروسي الذي كان يحرسه أحد الأوروبيين، غير أنّه لم يمس بسوء لأنّ محمد أولحاج أوحليل كان قد شمله بعنايته ( حمايته ) وسرعان ما أخذه إلى الجبل مبعدا إياه عن غضب الثوّار، وعلى الطريق كان هناك إسبانيان أحاط بهما الثوّار فلمّا تبيّن أنّهما ليسا مسلحين تركوهما لحال سبيلهما دون أن يؤذوهما[17].

في حين أنّ مجموعة من الثوّار هاجمت المنزل الذي كان في الزبربورة على بعد 05 كلم شرق قرية باليسترو وأحرقته دون أن تتعرّض لحارسيه الاثنين بسوء لأنّ الحاج عمر من فرقة المرابطين بأولاد عيسى أو شرفة القلعة قام بحمايتهما وأخذهما عنده بمساعدة أحمد بن عمر الخلفوني [18] .

وطوال يوم 20 أفريل لم يتوقف الثائرون عن تدمير ممتلكات المستوطنين في باليسترو حيث كانوا يطلقون رصاص بنادقهم نحو المنازل التي كانت تضمّ رجال الدرك ورئيس البلدية الذين تحصّنوا بها، ولكن دون محاولة الاقتراب منهم .

أما القايد الحاج أحمد بن دحمان الذي كان أكثر الأهالي كراهية لرئيس البلدية فقد تجنّب تعريض نفسه للخطر، وكان طوال اليوم قلقا وأخيرا قرّر أن يكتب لرئيس الملحقة بالعاصمة يخطره من خلال وراسلته تلك عن رفضه وإدانته المطلقة لما قام به علي بن صالح مقدّم الطريقة الرحمانية (المدعّم من طرف سي محمد الصالح بن عبد الرحمن [19] .

ولعل القايد كان يرمي من وراء كتابة هذه الرسالة إلى التنصل من المسؤولية وإلقاء العبء والتبعة كلها على أعدائه ومنافسيه القدامى من بني خلفون والمقدّم علي بن صالح بالذات في حالة حضور فرق النجدة العسكرية، وبذلك يظهر نفسه أمام السلطات

العسكرية أنه من المتعاونين الموالين لفرنسا هو وفرقته من أولاد بني دحمان .

وفي صباح اليوم الموالي 21 أفريل وصل مبعوث القايد إلى بودواو ولكنّه اضطرّ إلى التوقف عن مواصلة طريقه بسبب المعركة التي كانت دائرة بين ثوّار الخشنة والعساكر الفرنسية على مشارف المدينة، ولذلك لم يتمكّن من إعطاء الرسالة للمسؤول العسكري حتى أواخر النهار وبدوره فإن هذا الأخير لم يتمكّن من إرسال البرقية إلى المسؤولين بالعاصمة حتى وقت متأخّر جدّا من ليلة 22/21 أفريل.

أمّا في باليسترو فقد كانت ليلة 21/20 أفريل 1871 مضطربة بسبب الطلقات النارية المتكرّرة التي كان الهدف منها إرهاق المحاصرين الأوروبيين حتى لا يذوقوا طعم النوم فيتعبوا ويسهل على الثوّار بعد ذلك الإجهاز عليهم [20]..

وفي صباح اليوم 21 أفريل كانت فرق دوّار عمّال والزواتنة قد انطلقت من برج القايد الذي كان به نحو 1200 مسلح باتجاه مستوطنة باليسترو حيث اعترض طريقهم أحد المستوطنين بسلاحه فأردوه قتيلا قبل أن يتمكّن من إصابة أي فرد منهم . في حين أن الأوروبيّين الذين كانوا بالقرب من باب الثكنة التي احتموا بها، عادوا جميعهم إلى الداخل بعد أن قتل بعضهم .

وتمكن الكابتان أوجي في الأخير من إقناع أمين الأمناء سعيد بن كركود أن يشمله بعنايته، وتم له ذلك بالفعل حيث اصطحبه إلى بيته لحمايته من غضب الثوار، وفي ذات الوقت خرج ابن رئيس البلدية وهو طفل صغير لم يتجاوز الحادية عشر سنة من عمره وجرى نحو سعيد أوعلي وطلب منه المساعدة والحماية فرفعه هذا الأخير برفق على ظهر جواده وطمأنه ببعض الكلمات التي أعادت له الهدوء، فاستبشر الصبي خيرا وراح يتوسّل إليه أن ينقذ والده الذي بقي في الخارج، فقال سعيد أوعلي متمتما كمن يخاطب نفسه : فات الأوان يا ولدي، ثمّ أسرع بحصانه بعيدا عن المكان [21] ...

وفي هذه الأثناء كان مسيو دومينيك باسيطي (Dominique BASSETI) رئيس البلدية يتحدّث مع عمار بن كركود متوسّلا أن يبقيه حيّا مقابل المال الذي يمنحه له بغرض الإفراج عنه ، لكنّ الثائر لم يقبل الرشوة ، ولم يتردّد لحظة في إطلاق رصاص بندقيته على جسد باسيطي الذي سقط مضرجا في دمائه فأتبعه عمار بطعنات ساطوره التي قضت عليه نهائيا [22].

وفي ذات الوقت كانت مجموعة من الثوار تحطم بالفؤوس باب الثكنة التي احتمى بها من بقي حيّا من المستوطنين الأوروبيين الذين لم يجدوا مناصا من الاستسلام بعد أن أعطاهم قادة الثوّار الآمان على أرواحهم إن خرجوا مستسلمين مسالمين . وعند ذاك تمّ عدّهم بصوت مرتفع حيث بلغ العدد 49 شخصا. وسيق الجميع تحت

مسؤولية سعيد أورمضان إلى أعالي قرية حزامة حيث قضوا ليلتهم هناك.

ويوم الأحد 23 أفريل توجه الثوّار بالأسرى إلى قرية حميشة حيث أقاموا عند أمين الأمناء سعيد أوعلي الذي كان يحتفظ حتى ذاك الحين بالكابتان أوجي وابن رئيس البلدية السابق مسيو باسيطي . وفي منزله أعطي للأسرى بعض الزرابي والحصائر.

أما المستوطن الفرنسي الذي نجا من غضبة الثوار التي عاشها الفرنسيون يوم 21 أفريل فقد التجأ إلى قرية القايد الحاج أحمد بن دحمان يوم الأحد 23 أفريل حيث استقبله القايد بكل إحسان ووعده بالنجاة من الموت إن لم يغامر بالخروج من القرية [23] .

كل هذه الأحداث والسلطات الفرنسية لم تتمكن حتى ذاك الحين من معرفة أي شيء عن مصيرالأسرى الآخرين لسببين :

أولا ـ قوات المقراني بمنطقة سوفلات كانت قد شغلت السلطات العسكرية عن تتبع أخبار المعمرين المختطفين في باليسترو بعد تدمير القرية. فالمواجهة هناك كانت المحطة المصيرية للطرفين الفرنسي والجزائري .

ثانيا ـ لم تتسرب أية أخبار عن الأسرى سوى أن قايد الزواتنة حسين بن الطاهر الذي لم يكن من المؤيدين للثورة أخبر الملازم ديسنوايي

في بودواو عن وجود 40 مستوطنا أسيرا عند سعيد أورمضان بأعالي قرية حزامة .

وتوجه الثوار يوم 22 أفريل نحو ذراع الميزان بعد أن قضوا على المستوطنين الأوروبيين الذين كانوا في باليسترو، وأسروا من بقي منهم حيّا ، وأثناء تنقلهم ذاك حطموا كلّ ما صادفوه في طريقهم من مزارع المعمرين ومنازلهم بالاضافة إلى الخطوط الهاتفية [24] .

يوم الأحد 23 أفريل 1871م خرج الكولونيل فورشو (colonel Fourchault) في ساعة متأخرة من النهار قد تكون الساعة الثامنة مساء من معسكره بالعلمة ( بودواو) ساعيا إلى فك الحصار عن المستوطنين في باليسترو . غير أنّ الكولونيل وفرقته لم يصلوا إلى عين المكان إلا يوم الإثنين 24 أفريل على الساعة الثانية زوالا بعد أن ساروا طيلة 18 ساعة من دون توقف، ودون أن يتعرّضوا لأيّة مناوشات أو عوائق خلال مشوارهم، ولّما وصلوا إلى باليسترو وجدوا 42 جثة بعضها محروق مفحّم وبعضها الآخر مثخن بالجراح، وقد انبعثت من هذه الأشلاء رائحة عفنة ؛ ممّا دفع العقيد فورشو إلى أن يأمر بدفن هذه الجثث في الخندق الذي حفر خصيصا لهذا الغرض بالقرب من الكنيسة، في حين أن أربعة جثث أخرى بقيت على السطوح ولم ينتبهوا لوجودها إلا بعد الانتهاء من عملية الدفن الجماعي لتبقى في العراء من دون دفن لمدة طويلة.

وفي باليسترو حيث كانت الوحشة مخيّمة لم يعثر الكولونيل فورشو وجنوده على أيّ أثر لبقية المستوطنين الذين لا يعلمون حتى تلكم الساعة عن مصيرهم أيّ شيء يذكر غير أنهم صادفوا واحدا مسكينا من الأهالي أرداه الجنود الفرنسيون قتيلا ؛ بعد أن قادته قدماه إلى الديار المدمرة باحثا عن أيّ شيء من المتاع يمكن أن يستفيد منه في هذه الأوضاع التي تميّزت بفقر الأهالي الجزائريين (25).

وبعد التعب والإرهاق الذي أصاب تلك الفرقة العسكرية التي يقودها العقيد فورشو كان عليهم أن يقضوا ليلة 24 و25 أفريل في وسط المستوطنة باليسترو حيث كانت ليلتهم هادئة . أما العودة إلى مركزهم العسكري في بودواو فقد كانت يوم 25 أفريل، ولكن بمجرّد خروجهم من باليسترو تلقفتهم 1200 بندقية من كلّ جهة حيث كان أهالي دوار الزواتنة، عمّال، صنهاجة وبني خلفون في الموعد غير أنّ المدفعية التي كانت بحوزة العقيد جعلت الثوّار لا يتمكنون من الاقتراب من القافلة العسكرية ومع ذلك فقد تابع الثائرون ترصدهم لهذه القافلة العسكرية في انتظار الفرصة المواتية للانقضاض عليها.

واستمرّ الترقب كذلك حتى وصلت القافلة إلى فجّ تامزريت حوالي منتصف النهار ، وعند ذاك انسحب الثوار عندما لاحت في

الأفق قبيل الوصول إلى خميس الخشنة الفرقة العسكرية التي كان يقودها النقيب برييز (capitain Bruyère) الذي كان مسؤولا عن تلك الجهة . وقد كان متبوعا بسريّة تحمل المؤن الغذائية : خبز قهوة ومواد أخرى للجنود الذين أتعبتهم مسيرة 48 ساعة . وفي المساء عسكر جنود العقيد فورشو في مخيم عسكري أقاموه بالفندق (خميس الخشنة). ليدخلوا مقر معسكرهم في بودواو يوم 26 أفريل [26].

أما الأنباء الرسمية الأولى عن الأسرى فقد أوردها إلى العاصمة بصفة مباشرة يوم 09 ماي الشاوش القديم في المكتب العربي بذراع الميزان محمد أوسعيد النزليوي الذي كان محبوسا في سجن الحراش وقد أطلق سراحه بغرض الحصول على المعلومات التي تخص أولئك المستوطنين الأسرى . لأن هذا الشاوش كان ذكيا جدا وهو من دفع الحاكم الأعلى لذراع الميزان (commandant Jobst), إلى الانتحار[27] ، بعد أن فشل هذا الأخير في احتواء الوضع الذي كان يحضر لاندلاع الثورة .

وعاد محمد أوسعيد النزليوي إلى العاصمة يحمل الرسالة التي تمكن من الحصول عليها من الأسرى أنفسهم والتي خطتها بيدها السيدة ... Mme V. إلى السيد بارنيون ( Barnéond) مدير السجن الذي أرسل الشاوش السجين في هذه المهمة الخاصة ، وقد كانت الرسالة مفتوحة حتى يتمكن من إظهارها لفرق الجيش الفرنسي

أثناء عودته كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، ومما جاء فيها : لقد اتصلنا بالترخيص الذي أعطي للسيد محمد أوسعيد من طرف السيد بارنيون . ألف شكر على العناية والاهتمام الذين نحظى به عندكم . إننا نقيم حاليا عند سعيد قايد بني خلفون . أنا وطفلي والخادمة والجندي والنقيب أوجي و34 مستوطنا من سكان باليسترو الذين بقوا أحياء . وطي هذه الرسالة وضع النقيب أوجي قصاصة صغيرة كتب عليها الكلمات التالية : نرجو من السيد بارنيون أن يخبر السيد الحاكم بالعاصمة أنني أقيم حاليا عند قايد بني خلفون الذي استقبل مستوطني باليسترو ... تحياتنا [28].

ومكث المستوطنون أسرى في دوار بني خلفون حتى تم تسليمهم إلى الجنرال سيريز يوم 13 ماي 1871 ، بعد أن بقوا هناك محبوسين لمدة 20 يوما يعاملون بكل كرم وسخاء . وهو ما جعلهم فيما بعد يشهدون لصالح سعيد أوعلي ويطلبون من السلطات الفرنسية العمومية والعسكرية أن تعفو عنه بعد أن حكمت عليه المحكمة بالإعدام [29].

هذه إذن هي حلقة من حلقات ثورة 1871 التي يعتبرها الكثيرون من الناس أهمّ حدث ثوري طال الفرنسيين في باليسترو حيث أنّه من بين 108 أوروبيين كانوا يعيشون في المستوطنة حتى يوم 22 أفريل 1871 ، وجد منهم 50 قتيلا و42 نسمة منهم أسروا في دوار بني خفون

و16 شخصا منهم تاهوا في البراري، فبعضهم أنقذهم الأهالي من الموت المحقق وبعضهم الآخر واصل السير على قدميه حتى وصل إلى خميس الخشنة حيث كانت الفرقة العسكرية الفرنسية المعسكرة في خميس الخشنة تسيطر على الوضع الأمني العام هناك [30] .

وبعد أن استتب الأمن في المستوطنة وتمكّن الفرنسيون من السيطرة الكاملة على الأوضاع عمدوا إلى بناء نصب تذكاري أمام الخندق الذي دفنوا فيه جثث القتلى تخليدا للحادثة وأقاموا فوقه تمثالا لدومينيك باسيطي أوّل رئيس لبلدية باليسترو منوّهين ببطولة المستوطنين وإنجازاتهم الحضارية في المنطقة .

أما عمار بن كركود الذي قتل رمز الاستيطان في منطقة باليسترو فلم يرد ذكره على الإطلاق وما كان أحد من الناس يذكره أو يعرف عنه شيئا، لولا المصادر الفرنسية التي ذكرت هذه الحادثة بالتفصيل غير أنّها لم تعطنا معلومات عن الرجل ولم تذكر ما حدث له بعد ذلك .

وبقي اسم الرجل منقوشا على صفحات المصادر التي ذكرت الحادثة ، ولكن العامة من الناس اليوم لا تكاد تعرف عن هذا المجاهد شيئا ، وكان من الممكن أن يكون اسمه معلوما عند الجميع خاصة لدى أبناء المنطقة لو بقي النصب التذكاري قائما ، غير أنّ الذي حدث غداة الاستقلال هو أن العامّة دمرّت النصب ومحت بذلك المعلم التاريخي الذي كان من المفروض أن يحافظ

عليه مواطنو المنطقة تخليدا لتاريخ الحادثة واسم المجاهد الذي قضى على المستوطن .

**الحاج محمد المقراني يسقط شهيدا في منطقة باليسترو:**

بعد أن جمع المقراني حوله 4000 محارب عاد بهم على عجل إلى الجهة الغربية عبر جبال البيبان حيث انضمّ إليه عدد كبير من محاربي بوجليل وبني مليكش وبني عباس وبني يعلى وبني منصور واتجه بهم نحو مدينة البويرة مركز قيادة الآغا بوزيد وكان ذلك في فاتح شهر ماي 1871م. في ذات الوقت الذي كان فيه الثوّار الآخرون يواجهون القافلة العسكرية التي كان يقودها ترواملي على الضفة اليسرى لوادي سوفلات[31].

وفي اليوم الخامس من شهر ماي عام 1871، وعلى الساعة الواحدة صباحا استعدّ الطابور العسكري الفرنسي للتوغّل في هدوء محاولا عدم إثارة الانتباه لتحركه مستفيدا من الظلام الدامس الذي كان يخيم على تلك الجهة، وهو مدعم ببعض الأهالي المجندين من القومية والصبايحية.

وعند الفجر لاحظ الجنرال سيريز أنّ هناك جماعة من الثوّار تحتلّ مرتفعات التلال، وعندما لاحت الشمس في الأفق شاهد رئيس السريّة على الضفة اليسرى فريقا من الفرسان يتقدّمون باتجاهه حاثين الخطى وكان الحاج محمد المقراني من بين أولئك الفرسان

حيث سمحت الراية التي ترفرف في مقدّمة الفريق من تحديد موقعه من دون خطإ .

وبدأ المجاهدون يحكمون حصارهم شيئا فشيئا على القوّات الفرنسية ، حيث قامت فصيلة من الرماة بالتسلل بمهارة وخفة وراء الصخور وعبر أشجار العليق ، وأشواك الغابة معيقة تقدّم الجنود الفرنسيين الذين انتابهم الرعب وأسرعوا الخطى، ممّا اضطرّ فوجا من العساكر الصبايحية إلى مهاجمة العناصر التي كانت تحاول الاقتراب من القافلة العسكرية الفرنسية. بغرض إبقاء الثوار المجاهدين بعيدين عن كتائب الجيش الفرنسي، وهو ما مكّن بالفعل تلك الفرق العسكرية الفرنسية من الوصول إلى برج الخرّوب بعد حوالي 10 ساعات من تحرّكها[32] ...

وقرّر الجنرال سيريز القيّام بعملية ابتزاز في قرية مجاورة ربّما ليثبت لنفسه أنّه ما يزال يسيطر على الوضع هناك ويحتفظ حتى تلك الساعة بالمبادرة في العمليات العسكرية، حيث أرسل كتيبتين من الوحدة 23 للقناصة لإحراق المنطقة الواقعة في مواجهة البرج بعد أن أرسل فيلقا من الفرقة الرابعة من السلك الزواوي لحمايتهم واحتلال الهضبة التي تطلّ على الهوّة الواسعة .

واشتبك القناصة مع المجاهدين على مسافة قصيرة من المنطقة، وتلاحم الجيشان بالسلاح الأبيض وكلهم عزم على القتال حتى

الموت، واندحرت القوات الفرنسية أمام تدفق المجاهدين الذين منعوها من التقدّم إلى الأمام بفعل الهجمات المتكرّرة الكاسحة .

ولم ينج من القوات الفرنسية في هذا الاشتباك إلا حوالي 30 جنديا فرنسيا تمكّنوا من الانسحاب والالتحاق بمعسكرهم تحت قيادة ضابط صف مساعد ، وتشتت الكتيبتان التابعتان للوحدة 23 للقناصة وكادتا تتعرّضان للإبادة الكاملة بعد أن خسرت الكتيبتان جميع الضباط في تلك المواجهة .

وتسارعت وتيرة المعركة فجأة وبعنف، وانتقل المجاهدون إلى الهجوم في جميع الاتجاهات حيث هاجموا الخيالة بشراسة منقضّين على الفرنسيين الذين كانوا يقاتلون منسحبين إلى الوراء نحو معسكرهم لأسباب دفاعية ، وكوّن الناجون من الجيش الفرنسي حلقة متراصة لتفادي السقوط تحت ضغط التدفق الكبير لقوات المجاهدين التي بدت في أعين الجنود الفرنسيين وكأنّ أعدادها تتضاعف.

وفتح الزواويون الذين كانوا يحتلون مواقع محكمة ومموهة نيرانا مكثفة ومصوبة ، وتلقى المقراني الذي كان في المقدّمة رصاصة في جبهته ليسقط على الفور شهيدا، وأصيب عدد من المقاتلين الذين كانوا معه، وانسحب الناجون من النيران المكثفة

واختفوا ... ثمّ عاودوا الكرّة من جديد وبعد بذلهم لتضحيات جسام تمكّنوا من انتشال جثة زعيمهم وحملوها بعيدا عن ميدان المعركة.

وفجأة ارتفع صوت مدوي ولكنّه حزين وممزوج بالشهيق ليعلن وسط صخب الانفجارات وقرقعة السيوف عن سقوط الباشاغا محمد المقراني شهيدا في ميدان الشرف . وبذلك وضع هذا الصوت حدا للتراجيدية التي كان سيعيشها الطابور العسكري الفرنسي الذي كان يمكن أن يفنى عن آخره. وعندما علم بومزراق بنبإ الفاجعة العظيمة تحامل على نفسه وتولى القيادة العامة للقوات المسلحة للثوار .

وطار الخبر من تلّ لآخر حتى بلغ السهل، فنكّست البنادق وتراخت السواعد، وخيّم صمت ثقيل على جميع الصدور. أمّا الجنرال سيريز فقد بقي مذهولا مدهوشا لعدّة لحظات، ثمّ قال متنفسا الصعداء : لقد أنقذتنا وفاته، وجدير بي أن أفرح وأبتهج، إلاّ أنّ موته سبّب لي حزنا كبيرا، فقد كان خصما شجاعا، وفيّا ومقداما [33].

ووضع الجنرال سيريز قوّاته في استعداد والسلاح عند الأرجل، وترحّم على روح عدوّه، وقد تمكّن الجميع بفضل هذه الهدنة من مشاهدة قافلة الجنازة وهي تنقل الجثمان إلى قلعة بني عباس ليوارى الثرى تحت ظلال جبال جرجرة التي شهدت ولادته ونشأته[34] ، لتبقى ذكراه عطرة تتداولها الأجيال اللاحقة .

وخلف بومزراق أخاه الشهيد في قيادة الثورة إلى أن اعتقل في 20 جانفي 1872 بواحة الرويسات قرب ورقلة . وبذلك انتهت الثورة التي أسالت الكثير من حبر المؤرخين والكتاب الفرنسيين لفهم أبعادها ومحاولة القضاء على كل ما قد يؤدي إلى تكرار مثلها [35] . وقد سلط الفرنسيون الذين تمكنوا في النهاية من القضاء على سطوة ثوار 1871 أشد أنواع القمع والتنكيل بالأهالي الجزائريين [36] ، الذين كان عليهم الصبر ومواصلة الكفاح حتى تحقق الاستقلال يوم 05 جويلية 1962 م بفضل تضحيات الأهالي الجزائريين .

**المقراني الأسطورة بمنطقة باليسترو**

ولشدّة تعاطف أهالينا في منطقة باليسترو مع مجاهدي ثورة 1871 فقد نسجوا حول شخصية الحاج محمد المقراني أسطورة تبيّن مدى الأمل الذي كان معقودا على هذه الشخصية التي صارت في وقت وجيز مثالا للرجل الصالح القويّ الذي لا يغلبه الكفار وسينتصر عليهم بإذن الله . فقد كانوا يقولون عن الرجل أنّه بعد كلّ معركة يفتح الحزام الذي يتمنطق به فتسقط عشرات الرصاصات التي أصابته في الجسد أثناء تبادل الطلقات النارية مع قوّات الجيش الفرنسي المدعّمين بالمجنّدين الجزائريين المتعاونين معهم دون أن تنال منه .

واكتشفت المخابرات العسكرية الفرنسية أنّ المقراني البطل يحمل حجابا يحول دون تمكّن الرصاص من اختراق بدنه ولذلك عهدوا إلى أحد الخونة باغتيال المقراني بواسطة الرصاص المصنوع من معدن الفضة بعد أن دلهم على السرّ أحد المتعاونين معهم ممّن باعوا الذمّة والدين . وقد تمّ تنفيذ العملية يوم 05 ماي 1871 م التي اغتيل على إثرها البطل محمد المقراني. لتبقى حكايته ترويها الأجيال أبا عن جدّ، والكلّ يطرح أكثر من سؤال[37].

وبعد أن تم للسلطات الفرنسية السيطرة على الأوضاع الأمنية بعد القضاء على رموز الثورة راحت تسعى للقضاء على ما تبقى من الأهالي المغلوبين على أمرهم فكان أن ركزت اتهاماتها على العديد من المواطنين على اعتبار أنهم مسؤولون عن الأحداث التي وقعت يومي 20 و21 أفريل عام 1871 والتي أدت إلى تدمير مستوطنة باليسترو وقتل العشرات من المستوطنين بها .

**الإعدام والسجن لأهالي المنطقة :**

ومن بين الذين اكتووا بنار تعسف الاستعمار الفرنسي بعد نكبتهم وفشل ثورة 1871، نجد الإخوة الخمسة للبطل الشهيد المقراني وابنه حيث شاركوا بكل قوة وحزم في الثورة التي تزعمها المقراني. إذ أنهم بعد أن قبضت عليهم السلطات الفرنسية وحوكموا صدرت في حقهم أحكاما تقضي بنفيهم إلى كاليدونيا حيث بقوا هناك حتى تحصلوا على الإعفاء من العقوبة نظير خدماتهم فيما

يخص مساعدة السلطات الكاليدونية في القضاء على انتفاضة 1878، ولم يستثن من الإعفاء سوى ابنه الذي بقي هناك ولم يسمح له بالعودة إلى الجزائر حتى سنة 1927.

أما فيما يخص المقدم سي محمد الصالح حفيد شقيق بوقبرين فقد اختفى عن الأنظار بمساعدة الأهالي، وبذلك لم تتمكن السلطات الفرنسية من القبض عليه خلال حملاتها الجهنمية ومتابعتها لكل المشاركين والمدعمين للثورة . إذ كان طوال المدة التي أعقبت فشل الثورة من 1871 وإلى غاية 1886 ينتقل من منطقة إلى أخرى حيث يستقبل بحفاوة بالغة من طرف الأهالي بمختلف مناطق الشرق الجزائري وهو لا ينفك يدعو إلى الجهاد ومحاربة الفساد والوقوف في وجه الفرنسيين المحتلين الذين أهلكوا الزرع والضرع .

ولم يبق المقدم سي محمد الصالح البجاوي مكتوف الأيدي ينتظر مصيره المحتوم بل اختفى عن الأنظار لأنه كان يدرك ما ينتظره على أيدي أعداء البلاد، بعد أن لعب دورا كبيرا في شحذ الهمم وتجنيد الرجال في مختلف الثورات السابقة منها ثورة الحاج اعمر وثورة لالة فاطمة انسومر، ونفس المهمة قام بها في ثورة 1871[38] .

وبالعودة إلى منطقة باليسترو التي شهدت تدمير المستوطنة، نلاحظ أن السلطات الاستعمارية قضت بتوجيه التهم ضد 44 شخصا، وقد تمت محاكمتهم يوم 21 جانفي 1873 وبالرغم من أن توصيات الوزارة العمومية كانت تدعو لمراعاة الظروف الخاصة إلا أن القضاة كانوا صارمين بحيث رفضوا كل الظروف المخففة للآتية أسماؤهم :

1 - سعيد واعلي . 2- الحاج أحمد بن دحمان . 3 – سعيد بن رمضان ولخمسة آخرين حكمت عليم المحكمة بالإعدام. و23 شخصا حكمت عليهم بالنفي، و12 شخصا حكمت عليهم المحكمة بالسجن لمد 05 سنوات مع الأشغال الشاقـة .

مستوطنو باليسترو الذين كانوا أسرى عند الثوار طالبوا بالعفو في حق سعيد واعلي الذي استبدل الإعدام في حقه بالنفي . أربعة آخرون من المحكوم عليهم بالإعدام منهم سعيد بن رمضان خفف الحكم في حقهم واستبدل بالنفي كذلك. ولم ينفذ حكم الإعدام إلا في 03 أشخاص فقط هم :

1 - بوجمعة بن أحمد كان خادما عند مسيو باسيطي .

2 - سليمان بن أحمد كانت له سوابق مع مستخدمه

3 - قايد عمّال الحاج أحمد بن دحمان البالغ من العمر 68 سنة الذي كما سبق وأشرنا إليه، كان قد أنقذ حياة أحد الأوروبيين، واستخدم في عدة مرات لصالح المحتلين الفرنسيين، وكان في كل

مرة يبرهن عن ولائه للفرنسيين، ومع ذلك لم ينج من مقصلة المستعمرين الذين كانوا كالمجانين يقتلون وينفون ويسجنون أبناء المنطقة بكل حقد.

وقد تداول الناس أخبار قايد دوار عمّال عندما نفذ فيه حكم الإعدام في 02 ماي 1873 أمام السجن المدني بالعاصمة، حيث صاح موجها خطابه للعرب {الأهالي الجزائريين} الذين كانوا حاضرين: يعدمونني وأنا بريء !...، وكذلك يعدم كل من يمنح ثقته للروامه (الغزاة الفرنسيين )، أو يبذل دماءه في سبيلهم [39].

وصيحة قايد دوار عمّال الحاج أحمد بن دحمان صارت بمثابة حكمة أزلية قالها قبيل تنفيذ حكم الإعدام في شخصه وهي أصدق تعبيرا من أي قول فصيح، وإن لم تكن قد أفادت صاحبها في شيء فهي على الأقل أنارت أفئدة من يعتقدون أنه بالإمكان جني العنب من الشوك .

# الهوامـش

1 - مصطفى الأشرف : الجزائر : الأمة والمجتمع ، ترجمة د/ حنفي بن عيسى ط. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983 ،ص. 16 .

2- Robin ( le colonel N .) : L'insurrection de la Grande Kabylie en 1871,Henri Charles, La Vauzelle ,Editeur militaire ,Paris 1901 .p.41.

3 - يقول بعض من تحدثنا إليهم من المسنين بقرية آيت اسماعيل ومنهم حفيد السي محمد الصالح الشيخ سي الهادي جاوي المولود عام 1921 والذي لا يزال على قيد الحياة حتى هذه الساعة : إن ثورة 1871 لم يعلن عنها الشيخ الحداد بصدوق حتى وصله كتاب التأييد من المقدم سي محمد الصالح البجاوي وهو يحمل ختم الولي الصالح سيدي امحمد بن عبد الرحمن بوقبرين ...

ونشير هنا أننا عثرنا على وثيقة سرية بأرشيف بلدية ذراع الميزان تؤكد سجن ونفي سي محمد الصالح حفيد شقيق ابن عبد الرحمن الذي بقي خلال الفترة 1871 – 1885 متخفيا عن أعين الاستعمار وأذنابه بشرق البلاد ، وعند عودته إلى الديار على أساس أن فترة المداهمات قد انتهت ، ألقي عليه القبض ؛ وبعد محاكمته ؛ سجن في سركاجي ثم استبدل السجن بالإقامة الجبرية في مليانة التي بقي بها حتى سنة 1896 ... ونحن نحتفظ بصورة عن هذه الوثيقة السرية من أرشيف بلدية ذراع الميزان تؤكد هذه المعلومات . بالإضافة إلى رسالة بعثها سي محمد الصالح إلى مقاديم الطريقة الرحمانية حينما كان في الإقامة الجبرية بمليانة ومن هناك كان يحثهم على الثبات على المبادئ الدينية والأخلاقية . وهي من ارشيف عائلة سي محمد الصالح بن عبد الرحمن .

4 - قرية قرقور مسقط رأس الرائد الشهيد سي لاخضر ( 1934 – 1958 ) الذي سميت باسمه مدينة باليسترو التي صارت منذ فجر الاستقلال تحمل اسم الأخضرية نسبة للشهيد

5- Rinn Louis : Histoire de L'Insurrection de 1871 en Algérie Édition , Librairie Adolphe JOURDAN (imprimeur libraire-éditeur) Alger 1891 . , pp.380 et les suivantes

6-Idem.

7- Idem

8- Rinn Louis : Histoire de L'Insurrection de 1871, op.cit.p. p. 386 et les suivantes

9 - يقول بعض من التقيناهم من المسنين بقرية آيت اسماعيل ومنهم حفيد السي محمد الصالح الشيخ سي الهادي جاوي أن الثورة لم يعلن عنها الشيخ الحداد بصدوق حتى وصله كتاب التأييد من مقدمي الرحمانية بالمنطقة وهو يحمل ختم الولي الصالح سيدي امحمد بن عبد الرحمن بوقبرين .

10- JULIEN Charles André : Histoire de l'Algérie contemporaine, la conquête et les débuts de la colonisation (1827-1871), T1, (P. U. F), Paris1986, 481- 482

11 - محمد الصالح بجاوي : القايد والقذاف ورفاقهما في الكفاح ، ط. دار الجائزة ، الجزائر 2009 ، ص .324 .

12- Rinn Louis : op.cit .p. 383 .

13- Idem .

14 - يبدو أن هذه السيدة قد أخذت بالفعل بنصيحة سعيد بن رمضان أمين قرية حزّامة لأنّنا بعد أن اطلعنا على قائمة من قتلوا يوم 21 أفريل من طرف الأهالي الثائرين ، وكذلك قائمة الأسرى الذين أختطفهم الثوار وبقوا محتجزين في دوّار بني خلفون حتى تاريخ 13 ماي لم نعثر على اسمها بين القتلى أو الأسرى .

15 - محمد الصالح بجاوي : القايد والقذاف... مرجع سابق ، ص. 325 .

16- Rinn Louis : , op.cit. p. 389 .

17- الزبربورة هي قرية فلاحية سكنها فلاحو التسيير الذاتي في بداية 1975 وهي إلى يومنا هذا آهلة بالسكان وموقعها كما كانت من قبل على بعد 05 كلم شرق مدينة الأخضرية ، وبالذات فهي خلف مصنع المؤسسة الوطنية للدهن ( لاسنيك ) من الناحية الشمالية

18 - محمد الصالح بجاوي : القايد والقذاف... مرجع سابق ، ص. 328 .

19 - المقدم محمد الصالح جاوي كان الناس بآيت اسماعيل وبونوح وبوغني يعرفونه باسم الشيخ سي محمد الصالح بن عبد الرحمن البجاوي وهو حفيد الشيخ محمد بن عبد الرحمن شقيق الولي الصالح سيدي امحمد بن عبد الرحمن بوقبرين. والرجل كان شيخا ومقدما معروفا بقرية آيت اسماعيل وزواوة وكل القطاع الشرقي .

20- Rinn Louis : Histoire de L'Insurrection, op.cit , p. -391

21- محمد الصالح بجاوي : القايد والقذاف... مرجع سابق ، ص. 330 .

22 - Rinn Louis : Histoire de L'Insurrection . op.cit , p. 386.

23 - محمد الصالح بجاوي : القايد والقذاف... مرجع سابق ، ص. 330 .

24 - Rinn Louis : op.cit . p. 387 .

26 - محمد الصالح بجاوي : القايد والقذاف ورفاقهما في الكفاح 1954 -1962 ، طبع دار الجائزة ، الجزائر 2009 ، ص.332 .

27 -Rinn Louis : op.cit.p.393.

28- Rachid Oulebsir : Revue P.N.H.A n° 106

29 -Rinn Louis : op.cit .p.394.

30 -Rinn Louis : op.cit .p. 398 .

31 - د/ بوعزيز يحي : ثورة 1971 ( دور عائلتي المقراني والحداد ) ط، ش،و،ن،ت، الجزائر 1980. ص 278. وادي سوفلات يقع في محيط قبيلة صنهاجة التابعة إداريا لبلدية باليسترو .

32 - الطاهر أوصديق : ثورة 1871، ترجمة جباح مسعود ، طبع المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر 1989 ، ص.ص.86 -87.

33 - الطاهر أوصديق : ثورة 1871، مرجع سابق ، ص.ص. 88 -89 .

34 - المرجع نفسه .

35 -Louis Rinn: op.cit .pp.468 et les suivantes .

36 - Revue Africaine : Année 1874 , p.476 .

37 - هذه الحكاية الواردة في النص كانت تتردّد على الألسن قبل الثمانينات من القرن الماضي بكلّ اعتزاز وفخر ولكنّها تتسم بطابع مرّ حزين . وقد سمعت شخصيا في سنة 1960 من رجل مسنّ كان يشتغل في شبابه مراقبا لقضبان السكك الحديدية ، ولم

أكن ساعتها قد تجاوزت سن 12 عاما ، يقول ذاك الشيخ وهو من بلدية عمر دائرة قاديرية حاليا ويدعى سي علي بن اسماعيل . أن قضية الرصاص الذي كان لا يخترق جسد الحاج محمد المقراني قد تكون صحيحة لأنّه مفسه وجد قبّعة جندي بداخلها حجاب فتبادر إلى ذهنه قصّة بطل ثورة 1871، فعلق يومها الحجاب على لوحة ورماها برصاصة من بندقيته فلم تخترق الرصاصة اللوح ، وعندما أبعد الحجاب عنه اخترقته ...؟. أمر غريب وعجيب !. ولكنّني شخصيا لم أسمع الكبار وقتها يقولون عن هذا الشيخ أنّه كان من الكذابين ... ولكنّني شخصيا أعتقد أن في الأمر شبهة ، والله أعلم ...

38 - بعد أن ألقت السلطات الفرنسية القبض على الشيخ سي محمد بن عبد الرحمن سنة 1886 بعد عودته من تونس التي استقبل فيها من طرف أتباع الطريقة الرحمانية وغيرهم من الأهالي ، بعثت السلطات الفرنسية تقاريرها عن الرجل وبمجرد عودته إلى مسقط رأسه على اعتبار أن الأمر قد انتهى بالنسبة لقضية المتابعة لرموز ثورة 1871 ، لكنه وجد الجيش الفرنسي المدعم بأعوانه من الأهالي الجزائريين يحاصرون المنزل ويقبضون على الشيخ المقدم سي محمد الصالح .

وسيق الرجل إلى حاكم ذراع الميزان الذي أرسله بدوره إلى حاكم الجزائر العاصمة. وبعد أن أحيل على القضاء الصوري حكمت محكمة الجزائر على الرجل بالسجن، وأودع الشيخ سجن سركاجي بالجزائر العاصمة...ولكونه كان شيخا تجاوز السبعين من عمره فقد استبدلوا السجن بعد ستة أشهر بالإقامة الجبرية بمدينة مليانة، حيث فرضوا عليه الإقامة الجبرية هناك وبعد أن قضى بمليانة عشر سنوات، رفعت عنه السلطات الاستعمارية حكم الإقامة الجبرية بعد أن قدّم بعض الأعيان بمليانة ضمانات بعدم عودته إلى الدعوة ضدّ الوجود الاستعماري في البلاد ، خاصة وأنه قد تجاوز الثمانين عاما، وبذلك سمح له بالذهاب إلى حيث يشاء داخل القطر الجزائري شريطة أن لا يعود إلى منطقة زواوة التي نشأ فيها وترعرع بين أحضان سفوح جبالها الشامخة .

ولم يكن اختيار مليانة اعتباطيا فقد اختاروها لكونها الأبعد عن منطقة زواوة بالإضافة إلى أن الفرنسيين كتموت يعتقدون أن الأهالي الجزائريين غرب العاصمة لم يكونوا متشبعين بتعاليم الطريقة الرحمانية . وبقي الشيخ المقدم في مليانة المجاهدة عشر سنوات كاملة قبل أن يسمح له بمغادرتها فكانت وجهته البويرة التي عاش في ربوعها حتى مات رحمه الله سنة 1926 عن عمر يناهز 110 سنوات ؛ دون أن يرى عودة الزاوية إلى سابق عهدها . ذلك أنّ الفرنسيين لم يسمحوا بإعادة فتح الزاوية الرحمانية بآيت اسماعيل حتى سنة 1928 م .ومع ذلك حرم نجله المقدم الشيخ عبد الرحمن بآيت اسماعيل من حق الإشراف على الزاوية رغم مطالبة الأهالي بذلك .... المصدر : أرشيف العائلة زيادة على الوثائق السرية للسلطات الفرنسية ، من أرشيف بلدية ذراع الميزان . بالإضافة إلى المعلومات المستقاة من سي الهادي حفيد الشيخ المقدم محمد الصالح بن عبد الرحمن رحمه الله . ملاحظة : كان الأهالي بمنطقة زواوة يدعونه السي محمد الصالح البجاوي، وذلك لكثرة تردده على مدينة بجاية. والملاحظ أن هذه الشخصية لم يرد ذكرها في كتابات الفرنسيين ، ربما لقطع الصلة بين هذه العائلة وعلاقتها النسبية بالولي الصالح مؤسس الطريقة الرحمانية . والمعلومات الواردة في موضوعنا هذا مستقاة من الوثائق النحصل عليها من أرشيف بلدية ذراع الميزان وأرشيف العائلة أو شهادات المسنين في آيت اسماعيل. .

39 - لقد كان القايد حيويا وهادئا، بل إنه توقف عن صلواته قبل تنفيذ الحكم فيه ليقول لابنه : عليك بالمطالبة بالبرنوس الذي تركته في السجن . كما أن هناك 250 فرنكا كان القايد قد أعطاها لأحد معارفه وطلب من ابنه أن يستردها . ومن بين الكلمات التي قالها قبل أن يموت هي تقززه وحسرته على الطريقة التي قبض عليه فيها يوم 30 ماي 1871 عندما طلب إن كان بمقدوره المجيء إلى المعسكر من دون خوف بعد أن قدم الكثير من الخدمات للفرنسيين. كما أن الطريقة التي حوكم بها فيها الكثير من علامات الاستفهام . فقد كان القبض عليه بأمر من الجنرال سافاريس Savaresse القائد العسكري لقسم العاصمة بعد التحفظات التي تقدم بها المقدم ديسانتري lieutenant-colonel Désandré الذي لم يعجبه الحاج أحمد بن دحمان القادم حرا مع فرقة الجنرال سيريز Cérez وكأنه واحد من الجنود الإضافيين . أنظر :

L'Insurrection de 1871 en Algérie Histoire de .Louis Rinn:

# المراجـع المعتمدة

[1] - د/ بوعزيز يحي : ثورة 1971 ( دور عائلتي المقراني والحداد ) ط، ش،و،ن،ت، الجزائر 1980.

2 - الطاهر أوصديق : ثورة 1871، ترجمة جباح مسعود ، طبع المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر 1989

3 - د/ يحي بوعزيز : ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ط.1 ، نشر دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة ، الجزائر 1880 .

4 - مصطفى الأشرف : الجزائر : الأمة والمجتمع ، ترجمة د/ حنفي بن عيسى ط. المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1983 ،

5 - محمد الصالح بجاوي : القايد والقذاف ورفاقهما في الكفاح 1954 -1962 ، طبع دار الجائزة ، الجزائر 2009 .

6 - جريدة المبشر: عدد 724 المؤرخة في 11/10/ 1870 ،

7- Rinn Louis : Histoire de L'Insurrection de 1871 en Algérie Édition , Librairie Adolphe JOURDAN (imprimeur libraire-éditeur) Alger 1891 .

8- Revue Africaine : Année 1874 , p.476.

9- JULIEN Charles André : Histoire de l'Algérie contemporaine 1827-1857,P.U.F, Paris, 1964.

10- Jacques Frémaux : les bureaux arabes dans L'Algérie de la conquête, ed. collection Denoél, Paris 1993.

11- Robin ( le colonel N .) : L'insurrection de la Grande Kabylie en 1871,Henri Charles, La Vauzelle ,Editeur militaire ,Paris 1901 .

12 - Frédéric Sliman : les Spahis et les Smalas , Paris 871.

13 - JULIEN Charles André : Histoire de l'Algérie contemporaine, la conquête et les débuts de la colonisation (1827-1871), T1, (P. U. F), Paris1986 .

14- Revue P.N.H.A, n° 106.